الاتجاهات البيئية المعاصرة وأزمة العلاقة بين الإنسان والبيئة _ مقاربة ثقافية

الأستاذ الدكتور: عبد العالي دبلة، جامعة بسكرة، الجزائر

الباحث: فريد بوبيش، جامعة بسكرة، الجزائر

ملخص:

تعد الاتجاهات البيئية المعاصرة _تبعا للمنظور النفسي والاجتماعي- حجر الأساس في أزمة البيئة. وقد ميز الباحثين في هذا الصدد بين ثلاثة اتجاهات: الاتجاه الكمي الاستغلالي للبيئة، واتجاه يستند إلى الفخامة والاستهلاك والفردية، واتجاه يطلق عليه الحضرية. بيد أن هذه الاتجاهات وان التفت حول أزمة البيئة، فإنها التفت أيضا حول مستويين من مستويات البيئة: البيئة الظاهرة التي تتجلى في إطارها أعراض الأزمة وهي البيئة الطبيعية، والبيئة غير الظاهرة التي تعمل بمثابة المتغيرات الكامنة التي تفعل فعلها في إنتاج الأعراض الظاهرة وهي البيئة الاجتماعية والثقافية. ولقد التقت التوجهات جميعها حول أن هذا المستوى الثاني هو الذي يتعين أن يخضع للتحليل والدراسة.

Abstract:

The contemporary environmental attitudes _ according to the psychological and social perspective - are the cornerstone of the environmental crisis. The researchers distinguished in this regard between three attitudes: the quantitative and exploitative attitude, the attitude of luxury, consumption and individualism, and the attitude which is called urbanism. These attitudes, having turned on the environmental crisis, have also turned on two levels of the environment : the outside (apparent) environment, in which the symptoms of the crisis are manifested, and which is " the natural environment"; and the non apparent environment, which is operating on latent (hidden) variables that do their work to produce the manifest symptoms, and which is "the social and cultural environment". All views agreed that it is this second level which should be subject to analysis and study.

مقدمة:

لا غرو أن قضية تلوث البيئة واستنزاف مواردها تعد مظهرا من مظاهر أزمة علاقة الإنسان بالبيئة، خاصة وقد أصبح يُنظر إلى أزمة البيئة ومشكلاتها المختلفة على أنها في الأساس هي أزمة إنسان وليست أزمة مكان. ومؤدى ذلك أن أزمة البيئة تجسد مشكلة إنسانية ترتبط بالمكون الكلي لسلوك الإنسان وعلاقاته بالمكان وموقفه من عناصره الذي هو أهم هذه العناصر. ولقد أفرز ذلك التوجه اتجاها يؤكد على أن أي محاولة لحل مشكلات البيئة يجب أن تنبع أساسا من معرفة دقيقة بطبيعة العلاقة بين الإنسان وبيئته والمتغيرات الثقافية والبنائية التي تشكل تلك العلاقة وتحددها. ومن ثم يتعين أن نبدأ بفهم الإنسان كي نفهم المكان ويمكن التدخل في حماية ووقاية الإنسان ليصبح عنصرا داعما لأدواره في الإنتاج والبناء والإبداع، فهو المتغير المباشر في تشكيل أزمة المكان كما أنه المتعرض الأول لتأثيراتها المدمرة [1].وأن أي علاج للآثار المدمرة الناتجة عن استغلال الإنسان للبيئة يجب البحث عنه في النظم الاجتماعية والثقافية[2].

فثمة فهم جديد للبيئة باعتبارها ليست شيئا فيزيقيا أو طبيعيا، إنما هي _كما ذهب "ادموند تيش" مجموعة مدركات ثقافية مترابطة_ ومؤدى ذلك أن مدركات البيئة هي في الأصل منتج ثقافي يتعين إعمال العقل في فهمها والاتصال بها. ومفاد ذلك أن البيئة من وجهة النظر الثقافية هي البيئة التي تتألف عناصرها أساسا من المدركات الثقافية، وبالتالي فهي تمثل الوعاء أو الموجه الأول لأنماط البيئات الأخرى بمفهومها الطبيعي والإيكولوجي والتي لا يمكن عزل تفاعلاتها معها وتأثرها بموجهاتها الفكرية والقيمية ومنظومة العلاقات التي تؤلف شبكتها[3].

ويدعم هذا التصور السابق للبيئة "دافيد كانتر" في تأكيده على البعد الاجتماعي الثقافي لها، فهي مجموعة من العناصر أو المتغيرات المؤسسية الاجتماعية

والثقافية التي تحدد سلوك الفرد وتشكل فهمه ومواقفه من عناصرها الطبيعية والعمرانية وعلاقاته بها وتفاعله معها[4].

ومن مجمل العوامل المتقدمة يتضح البعد أو المكون الجوهري للبيئة وهو مكون بشري اجتماعي ومادي أساسا. ومن ثم فقد فرض تساؤل رئيسي نفسه على ساحة البحث في الإطار المفهومي المكون لأزمة البيئة والمتمثلة على مستوى الاهتمام التقليدي بها في التلوث، واستنزاف الموارد البيئية. وينحصر هذا السؤال في ما هو منشأ أزمة البيئة ؟

تعد الاتجاهات المكتسبة أو المتعلمة _تبعا للمنظور النفسي والاجتماعي- والقيم والإيديولوجيات حجر الأساس في أزمة البيئة. وقد ميز الباحثين بين ثلاثة اتجاهات تقود بشكل مباشر إلى مشكلات البيئة[5].

الأول: الاتجاه الكمي الاستغلالي الذي يزن البيئة في ضوء إحصاءات أو كم الإنتاج وأطنانه إلى آخر ذلك وليس في ضوء مدى إسهامها في المحافظة على حياة وصحة البشر وسلامة عقولهم.

الثاني: اتجاه يستند إلى الفخامة والاستهلاك والفردية، وهي عناصر ينجم عنها بالضرورة استغلال البيئة واستنزافها.

الثالث: اتجاه يطلق عليه الحضرية (Urbanisme) وهي الحالة التي يزداد فيها انفصال البشر عن معالم الطبيعة. ومن ثم يجعل التوجه نحو الحضرية الأفراد غرباء داخل إطاراتهم الأيكولوجية وعناصرها الأولية.

ويرى العلماء والباحثين في هذا المجال أن تنمية الفاعلية على مواجهة مشكلات البيئة يفرض عدم تبني واكتساب تلك الاتجاهات على مدى جيل كامل على الأقل بحيث تحل محلها اتجاهات أخرى تدعوا إلى ضرورة النظر إلى الطبيعة _كما كان يفعل الإنسان الأول_ باحترام وخشوع وأن يترسب الإيمان بأن البشر ما هم إلا أجزاء صغيرة لا يتسنى لها الاستمرار دون الاعتماد على الطبيعة، وأن

نمط الحياة الذي يسعى إلى تحقيق التوازن والانسجام مع الطبيعة أفضل وأحب من ذلك الذي يسعى إلى مجرد غزوها ومحاربتها[6].

ونظرة حول الاتجاهات المتقدمة يتسنى القول أنها التفت حول قضية واحدة كبرى هي أزمة البيئة. ويدور محور هذه الأزمة حول الإنسان باعتباره العنصر الأول المنتج لإشكالياتها المتعددة. بيد أن تلك الاتجاهات وان التفت حول أزمة البيئة، فإنها التفت أيضا حول مستويين من مستويات البيئة: الأول البيئة الظاهرة التي يتجلى في إطارها كمدركات أعراض الأزمة مشخصة ومجسدة وهي البيئة الطبيعية. الثانية البيئة غير الظاهرة التي تعمل بمثابة مجمل المتغيرات الكامنة التي تفعل فعلها في إنتاج سائر الأعراض الظاهرة وهي البيئة الاجتماعية والتنظيم الاجتماعي ومنظومة علاقاته وقيمه وموجهاته السلوكية[7].

ولقد التقت التوجهات جميعها حول أن هذا المستوى الثاني هو الذي يتعين أن يخضع للتحليل والاهتمام طالما كان الإنسان هو محور أزمة البيئة _كما أسلفنا فيما تقدم_ وطالما كان هذا الإنسان من ناحية أخرى هو المنتج للتنظيم الاجتماعي الخاضع لضغط وجبر ما أسهم في خلقه من ظواهر وترابطات كما ذهب إميل دوركايم في مؤلفه الشهير "قواعد المنهج في علم الاجتماع[8].

ومن ثم تصبح القضية قضية اتجاهات غير واقعية سلبية غذتها لدى الفرد روافد ثقافية حطمت في داخله معنى العلاقة المعتدلة المتوازنة بينه وبين بيئته.

أولا: المسؤولية الثقافية إزاء أزمة علاقة الإنسان بالبيئة:

يشكل هذا التعاظم لظاهرة التلوث البيئي والدخان الذي يسود السماء بسبب احتراق البترول والغازات الأخرى، وظاهرة استنزاف الموارد البيئية وتعاظم انحسار الحياة البرية، واختفاء غابات المطر بمعدل منذر، وتآكل طبقة الأوزون...الخ جميعها تشكل مظاهر حقيقية لأزمة علاقة الإنسان بالبيئة، والتي تعكس بدورها الآثار الجانبية السلبية للاتجاهات الحديثة نحو العالم الطبيعي، وقد

ذهب الكثير من الدارسين إلى أن هذه الاتجاهات تبعد كل البعد عن الحداثة، ويمكن تتبع جذورها إلى التحركات المبكرة لما أصبح عليه في النهاية المجتمع الغربي الصناعي، حيث كانت أوروبا الغربية دون غيرها من الأصقاع هي البادئة بالثورة الصناعية.

وقد أوضح "وايت White" أن كل من التكنولوجيا الحديثة والعلم الحديث ذات أصول غربية ويمكن تتبع أصولها رجوعا إلى التقاليد اليهودية المسيحية، والتي شكلت نمو الحضارة الغربية[9]، والتي انجر عنها ظهور الاتجاهات البيئية المعاصرة التي أفضت بالإنسان إلى العمل أو الامتناع عن العمل الذي يسبب ضررا بمكونات الطبيعة مجتمعة أو بإحداها.

ولما أصبح العالم أشبه بقرية كونية نظرا للثورة العلمية التي أحدثها الإنسان في مجال الاتصالات والمعلومات، فإن هذه الاتجاهات البيئية المعاصرة السلبية ذات الأصول الغربية أخذت بعدا دوليا، واكتسحت معظم ثقافات ومجتمعات العالم، بطريقة أو بأخرى. فمثلا خلال القرن التاسع عشر تمكن الأوروبيون من إحداث تغييرات بيئية كبيرة في أراضيهم وقام المستعمرون بنقل أنماط جديدة من الحياة إلى الأراضي التي استعمروها واستوطنا فيها. واندثرت العديد من الطرق والتقاليد المحلية المتوارثة التي كانت تدار بها أنظمة البيئة[10].

ومعروف أن الطبقة المسيطرة اقتصاديا وسياسيا تكون مسيطرة اجتماعيا، وبالتالي تكون أقدر على نشر قيمها من غيرها من الطبقات، وذلك من خلال سيطرتها على وسائل الإعلام والتربية والإنتاج وأيضا تكون الدول المتقدمة صناعيا واقتصاديا أقدر على نشر قيمها على العالم أجمع، المهم أن هذه القيم المادية قد حولت الإنسان أولا إلى أداة إنتاج تابعة للآلة ثم أداة استهلاك غير ضرورية تفرضها وسائل الإعلام على حياته...وذلك جاء من اعتبار الإنتاج هو غاية عملية التنمية، وبالتالي كان الاستهلاك هو محور السلوك الإنساني بغض النظر عما يسببه

هدف زيادة الإنتاج من تهديدات لاستمرار وجود الجنس البشري. وكانت النتيجة تدهور البيئة واستنزافها وزيادة التلوث، وانعكس ذلك عل قيم الأفراد[11].

هكذا وجد الإنسان نفسه في أزمته مع بيئته، وأخذ يلمس يوما بعد آخر أنها غير قادرة على أن تعطيه اليوم ما كانت تمنحه بالأمس، ومن ثم أصبحت التكنولوجيا تقف في قفص الاتهام ينظر إلى فوائدها بعين الشك والريبة بسبب القلق الشديد من آثارها الضارة على البيئة وبسبب نموها السريع غير المنضبط[12].

وعلى الرغم من أن البعض قد وجه أصابع الاتهام إلى التكنولوجيا (أي الآلة)، غير أن "لويس ممفورد" في دراسة له يستنتج أن الآلة محايدة، وكما استنتج "رايلي" أن جزءا من المسؤولية يقع على الموقف الثقافي من الطبيعة وتحديدا مسؤولية الثقافة اليهودية_المسيحية، وأيضا في التنظيم الاقتصادي للمجتمع[13].

وهو ما يعني أن الاتجاهات البيئية المعاصرة والتي تعمل على تكريس أزمة علاقة الإنسان بالبيئة لها مسؤولية ثقافية تقف ورائها روافد ثقافية تاريخية تستدعي المناقشة والتحليل.

ثانيا: الروافد الثقافية للاتجاهات البيئية المعاصرة وأزمة علاقة الإنسان بالبيئة:

يكتسب الإنسان إنسانيته من خلال ثقافته "فليس للإنسان طبيعة إنما له ثقافة" كما يقول البنيوي عالم الأنثروبولوجيا "كلود ليفي ستراوس"، وأساس الجريمة ومنها الجريمة البيئية ثقافي حتما، فهي خيار ثقافي قبل أي شيء[14].

ومن هنا يمكن اعتبار الجوانب الاجتماعية جزءا من رصيد موارد البيئة، واعتبار البعد المعنوي أحد الجوانب البيئية غير المادية للبيئة، وهذا يفتح الباب أمامنا واسعا لدراسة الجوانب الاجتماعية والثقافية والدينية وعلاقتها بالبيئة[15]، من خلال دراسة التصور الثقافي للبيئة لدى الإنسان بكل تشعباته والذي أفضى إلى ظهور الاتجاهات البيئية المعاصرة التي انجر عنها تأزم العلاقة بين الإنسان والبيئة.

فالتصور الثقافي للبيئة هو الموقع الذي تحتله البيئة في المنظومة الفكرية للإنسان والذي يرسخه البعد الديني أو الفلسفي أو الأسطوري، أو هي الصورة التي تستقر في ذهن الإنسان وتتأتى له من دين أو فلسفة أو تراث ثقافي أو حضاري فتحدد له حقيقة البيئة ومنشؤها ومصيرها، وعوامل تدبيرها المادية وغير المادية [16].

ويعتبر التصور الثقافي للبيئة المسؤول الأول والرئيس عن تحديد وتقنين علاقة الإنسان بالبيئة، فهو الذي يحدد طبيعة تلك العلاقة ويضبط سلوك الإنسان تجاه بيئته. فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يحمل تصورا ثقافيا عن البيئة وذلك لكونه الكائن البيئي الوحيد الذي تتوفر لديه ملكة الإدراك والوعي والتخيير في التصرفات والسلوك، أما باقي عناصر البيئة من جمادات وكائنات فهي لا تملك ذلك الوعي والتخيير والإدراك والتصور الثقافي الذي يحمله الإنسان وبالتالي فإن تعاملها وتفاعلها في البيئة ومعها يكون جبريا تلقائيا وغريزيا وحسب النظام والسنة التي هداها الله لها.

أما الإنسان فإن سلوكه مع بيئته ليس جبريا، وإنما اختياريا وينبثق من خلفيته الثقافية والعقيدية والتراثية، ومن هنا تنبع أهمية التصور الثقافي، فالصورة الثقافية للبيئة لا تستمد أهميتها من قيمتها المعرفية فحسب، وإنما تستمدها بالأخص من وقوعها موقع التوجيه الفاعل لتعامل الإنسان سلوكيا مع البيئة، فبحسب ما تكون عليه تلك الصورة ينطبع السلوك البيئي للإنسان. وعلى سبيل المثال فلو كان الإنسان يعتقد في تصوره أن عناصر البيئة من أنهار وجبال وحيوانات هي آلهة مقدسة تملك له الضر والنفع فإن سلوكه إزاءها سوف يكون سلوك المسترضي لها بالقرابين، القاعد عن استثمارها بما يطور حياته، وفي مقابل ذلك فلو كان يعتقد في تصوره الثقافي أن في البيئة عدو له، وحائلا دون ممارسة حياته وتطويرها، فإن سلوكه إزاءها سوف يكون سلوك المعادي لها المصارع لعناصرها، مع ما يتبع ذلك من آثار التدمير الناتجة عن روح العداء وممارسة الصراع، وكذلك الأمر في كل حال تكون عليه الصورة الثقافية للبيئة، وهو أمر

تشهد به سير الحضارات في تطابق تصرفاتها إزاء البيئة مع الصور الثقافية التي تحملها عنها، والحضارة الراهنة خير مثال على ذلك[17].

فعلى سبيل المثال تحول العوامل الدينية دون الاستفادة من بعض المواد، فالهندوس يقدسون الأبقار، ويحول ذلك دون الاستفادة من حوالي 80 مليون رأس من الأبقار في الهند[18].

وحتى وقت قريب كان اليابانيون يعتزون بتقليد مفهوم قديم متوارث هو "الموتاناي"، وهو ينص على أن كل شيء في العالم هو هبة من الخالق، ومن ثم ينبغي على الإنسان أن يشعر بالامتنان له، وأن يحرص على كل شيء، ويعتبر أن إضاعة أو تبديد أي شيء خطيئة كبرى. وقد أثر هذا المفهوم في سلوك اليابانيين خلال أزمنة طويلة فحرصوا على الاستخدام الأمثل والترشيد للموارد المختلفة. ومع التطور الصناعي بدأ هذا المفهوم يتلاشى، وبدأ محاكاة المجتمع الياباني للمجتمع الغربي في أنماط الاستهلاك وأساليب الحياة[19].

لذلك فالثقافات الإنسانية هي التي وجهت الفرد والمجتمع إلى التعامل بشكل مدمر وإجرامي مع الطبيعة وقد مرت في هذا التوجه بأشواط تاريخية مهمة لا يمكن تجاهلها وهي إجمالا تشكل جذور الاتجاهات البيئية المعاصرة وأصولها والتي أفضت إلى أزمة العلاقة بين الإنسان والبيئة.

فمنذ ظهور الإنسان البدائي على سطح الأرض كان تأثيره على البيئة لا يكاد يذكر، لكن مع تقدم الزمن وتأسس التصورات الدينية كتعابير ثقافية لاحقة، تأكد الانقلاب الحاصل في العلاقة بين الإنسان والأرض. وسوف نبحث على وجه التحديد موروثين ثقافيين غربيين قرنهما بعض الدارسين بمشكلاتنا البيئية والحيابيئية، وهما الموروث الديني الغربي، أو اليهودي_المسيحي، وتطور العلم[20].

فالمسيحية والعلم الحديث هما المعلمان الكبيران في الثقافة الغربية، وبالرغم من أن معظم التاريخ الغربي يأخذ شكل الصراع بين هذين الشكلين الثقافيين، فإن بينهما كثيرا من المشابهة. وسوف نبحث مظاهر الاستمرار بين المسيحية والعلم لاكتشاف أصول السيطرة الغربية، ونبحث بعض المسلمات المتعلقة بالطبيعة، والتي توجد ضمنا في الثورة العلمية الغربية.

إن الدارسين الذين ذهبوا إلى أن جذور مشكلاتنا الحيابيئية تكمن في النظرة اليهودية-المسيحية إلى الطبيعة، ويؤكدون تفرد فكرة التوحيد في اليهودية والمسيحية، في مقابل الديانات البدائية المؤمنة بتعدد الآلهة وبحيوية المادة وعبادة الطبيعة، حيث يمثل الدين التوحيدي ثورة في العلاقة مع الطبيعة فمتطلبات الوحي التوراتي فجرت أطر التجربة والمفاهيم الأسطورية عن العالم، فقد كسرت العلاقة العضوية بين الإنسان والأرض بعد أن كان يتعامل معها بوصفها، الخاضعة والمغذية، فتعرض سلم القيم للتغير، فالإنسان هو الذي يسيطر على الطبيعة بعد أن كان عنصرا من عناصرها وهي الحقيقة الغالبة المهيمنة وخسرت الطبيعة الكثير من قدسيتها ومن روحها فأصبحت شيئا موضوعيا، ماديا بالنسبة للإنسان، الأرض لم تعد الأصل، لم تعد البدء، فهي أثر مخلوق، وهي مخلوقة كي تستقبل الخضرة، الأشجار، الأسماك، الحيوانات، وأخيرا الإنسان، الأرض تأتي بعد الخالق[21].

فالمفهوم التوحيدي لم يعد يرى في كل صخرة، في كل نبتة، في بعض الحيوانات كائنات مقدسة، ويلخص "بطرس الرسول" في رسالته إلى أهالي كونيثة هذه النظرة بقوله: "لم يعد هناك معبودات في العالم، ليس هناك سوى إله واحد[22]. وطبقا لما ذكره "لين وايت": "ما يفعله الناس لبيئتهم يعتمد على ما يعتقدونه عن أنفسهم في علاقتهم بالأشياء الأخرى حولهم. حيث ترتبط البيئة البشرية بدرجة كبيرة بمعتقداتنا عن طبيعتنا Our Nature ومصيرنا_أي بالدين"، وهو ما ورثته المسيحية من اليهودية ثم قامت بالتنقيح لتصل إلى أن هناك طريقة ثنائية للتفكير

والتي لا يكون فيها الإنسان مجرد جزء عادي من الطبيعة. كما أنه يختلف اختلافا كليا عن المخلوقات الأخرى. وطبقا لهذه الرؤية فإن الطبيعة قد خلقت لتخدم أغراض الإنسان كما أنها إرادة الله أن تستخدم كما يرى الإنسان ويشاء[23]. وقد ذُكر هذا الاتجاه بوضوح في سفر التكوين، حيث ينطلق "أرنولد توينبي" من الآية 28/ سفر التكوين_الإصحاح الأول: "وباركهم الرب وقال لهم: أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على وجه الأرض[24]"، لكي يرجع سبب أمراض عالم اليوم الكبرى، مثل السفه في استهلاك موارد البيئة التي لا تعوض، وتلويث ما لم يتبدد منها إلى ظهور هذا المعتقد. ومن خلال هذا المعتقد نما في العقلية الغربية هاجس قهر الطبيعة وترويضها من أجل الانتفاع بخيراتها، دو أن يأبه لما يمكن أن يترتب عن هذا الفعل من آثار سلبية.

لقد كان الإنسان قبل اليهودية والمسيحية يقدس الطبيعة ويعبدها، أنها إلهة، وكل ما يبرز منها من نبات ما هي إلا شركات في ألوهية الطبيعة، ويركز "لين وايت" على الفصل اليهودي_المسيحي بين الإنسان والطبيعة، أكثر من تركيزه على التوحيد، فقد أدى هذا الفصل إلى ظهور لون من العلم أدى إلى تغير شكل العالم، وإلى ظهور نظرة جديدة بني عليها العالم الجديد (أي الافتراض القائل بأن الناس والطبيعة مختلفون بشكل جوهري)، فكان لذلك كما يرى "كافين رايلي" نتائج هائلة بالنسبة إلى البيئة الحيوية. ويرجع ذلك إلى أن العلماء من أمثال "غاليلو" حولوا انتباههم عن كل السمات الذاتية للعالم واتجهوا إلى السمات الموضوعية أي تلك الصفات التي يمكن قياسها[25].

وهذا يعني أنهم ركزوا على تلك الصفات في الشيء التي يمكن قياسها، لأن المقاييس غير قابلة للتأويل والتفسير، وهكذا فإن قيمة العلم تكمن في أن نتائجه لا يمكن الجدال بشأنها. ولكن مشكلة العلم من وجهة نظر البنية الحيوية هي أنه كان من الضروري التغاضي عن العنصر الإنساني أو "الذاتي" حتى يمكن لم

الصفات الموضوعية، ومن ثم فإن نتيجة النظرة العلمية هي رؤية موضوعات العالم الطبيعي كما لو كانت ميتة[26].

وفي مقالته "لعنة هابيل" يرى "ديفيد كرونفيلد D.Crownfield" أننا يمكن أن نجد بدايات اتجاهاتنا ومواقفنا الحالية نحو الطبيعة في كتابات ترجع إلى قدم سفر التكوين، ويوضح نظرته بقصة هابيل وقابيل: حيث كان هابيل راعي غنم بينما كان قابيل حارثا للأرض، ومع مرور الزمن أحضر قابيل إلى "يهوه" قربانا من الفاكهة التي أنتجتها الأرض، وأحضر هابيل أول إنتاج قطيعه، ونظر "يهوه" إلى قربان هابيل وأخذه ولكن لم ينظر ولم يعتبر قربان قابيل[27].

والسؤال المطروح هنا: لماذا قبل "يهوه" قربان هابيل ورفض قربان قابيل ؟ لم تكن هناك إشارة إلى أن قابيل قد اقترف شيئا، كان الاختلاف الوحيد الظاهر بين الأخوين هو أن قابيل كان يزرع الحبوب بينما كان هابيل يربي الأغنام. وطبقا لما يقوله "كرونفيلد" تظهر هذه القصة الكثير عن قيم اليهود القدماء وعلاقاتهم بالعالم الطبيعي، كان اليهود قوما يفضلون تربية الأغنام، وكان بينهم وبين أهل فلسطين صراع لا ينتهي، حيث كان أهل فلسطين يعيشون على زراعة الحبوب. فاليهود كان تنظيمهم الاجتماعي قبليا، ويسوده النظام الأبوي كما أن تحالفهم وولاءهم الأول للجماعة وليس للأرض أو لأي مكان بعينه. ومن وجهة النظر الايكولوجية تعد هذه العقلية غير ملائمة لأن الأغنام تعد أصل الاقتصاد غير القابل للدوران Nonrecycling Economy.

وبالنسبة للقائمين على الرعي تعد الهجرة والانتقال هي الحل لمشكلاتهم فعندما تنضب الموارد في مكان ما ينتقل الشخص بكل بساطة إلى مكان آخر أكثر اخضرارا[28]. وقد تخلل هذا المنحى التنقليMigratory[29]. في الحياة تفكير الإنسان الغربي عن العلاقة بين الطبيعة والإنسان، وكان له تأثير عميق على الاتجاهات الغربية ليس فقط نحو الطبيعة ولكن أيضا نحو الزمن. وكما قال "كرونفيلد" بكلماته: "لقد أُنكر أو أُهمل الحاضر، وتم التغاضي عنه، ترك بكل

مشكلاته وعيوبه...سوف يتم حل مشكلات الحاضر في مستقبل مأسوي متداخل[30]، وبذلك أصبح الوجود مجرد انتقال وهجرة من هذا العالم إلى مستقبل أفضل، وأصبح الإيمان يعني (الثقة بزعيم القبيلة، الراعي المقدس، والمسيح، والتكنولوجيا) وأن هناك طريقة سيتم التوصل إليها للهروب من المراعي المتدهورة لبقاع أفضل. ففي مثل هذه المجتمعات يعتقد الناس بشدة أن هناك قوة إعجازية سماوية ستتدخل لمصلحتهم لتضع الأمور في نصابها[31].

وحتى اليوم يعتقد الكثيرون بأن التكنولوجيا وموارد الطاقة الجديدة أو حتى الهجرة للفضاء الخارجي سوف تحل بطريقة كلية وقاطعة مشكلاتنا البيئية. وغالبا ما تكون هناك صعوبة في أن نغير سلوكيات الناس المدمرة بيئيا في ضل هذه الظروف وقد لاحظ "برك Burke" أن نظرة الحياة هذه تؤدي لا محالة إلى تكنولوجيا هدفها ليس الاستقرار ولكن التغير الدائم[32].

وهكذا ورث المجتمع الغربي اتجاها بأنه ليس جزءا فعليا من الطبيعة، فالطبيعة وضعت له ليستخدمها كما يحلو له، وليست لديه أية التزامات أخلاقية للحفاظ عليها، وقد شجع هذا الاتجاه المسيحي المبكر على التفكير في الأجسام والأرض وحتى الزمن أو الوقت على أنها أشياء للمرء أن يتخلص منها ولا يمكن إعادة استخدامها ولا تجديدها، وهي عارضة وزائلة، ويعتقد "كرونفيلد" "بان هذه الاتجاهات وصلت إلى قمة جديدة مع نمو المذهب اللاهوتي "لكالفن"، وأخلاقيات العمل، وغزو الحدود الأمريكية الأمامية. ويبدو أن الناس كانوا ملزمين أو مجبرين أن يكتسحوا المراعي الأولى حتى جذورها، فقط عن طريق الاستخدام الكامل لهذا المكان الذي نتوقف فيه مؤقتا، ونظهر استعدادنا للرحيل إلى منزلنا الحقيقي[33].

لقد تميزت المجتمعات الغربية الصناعية على نطاق واسع باتجاهات تشجع استغلال الطبيعة وغزوها لمصلحة الإنسان. فمثلا بالنسبة للأمريكيين الأوائل كانت البرية مصدر تهديد، فهي مكان يجب استعادته واسترداده، وقد مال الغربيون التقليديون لأن يطوعوا الطبيعة على هوى الإنسان أكثر من أن يكيفوا

أساليب حياتهم مع البيئات المحيطة بهم. وأرخ "سارانيين Saarinen" لمقاومة النازحين الأنجلو أمريكان لقبول صحاري أريزونا كما هي، بالإضافة إلى محاولاتهم لاستبدال البيئات الشرقية الأكثر رطوبة والتي تعودوا عليها. وكذلك كان التراث الأدبي المروج، والذي طُور في القرن التاسع عشر لإغراء الأمريكيين المستقرين الأوائل للذهاب نحو الغرب، قد أكد إمكانية التكيف على الأرض، وذهب بعيدا لأن يقلل من مخاوف المخاطر الطبيعية والغابات التي لا يخترقها أحد والبراري الرتيبة[34].

وعليه فقد كانت البيئة في التصور الغربي الوضعي، أو بالأحرى كانت الاتجاهات البيئية للإنسان الغربي حبيسة هذا التصور ومنطلقاته وروافده الثقافية المتعددة، والتصور الغربي عموما بني على الفلسفة اليونانية والنهج الديكارتي، مما جعل العلاقة بين الإنسان والبيئة علاقة مادية بحتة تحكمها المصالح والمنافع المنظورة الضيقة التي أنتجت أزمة البيئة الحالية.

فالفلسفة اليونانية تنظر إلى البيئة وعناصرها على أنها عالم وضيع حقير، وجد لخدمة الإنسان المتميز بالعقل والروح والرفعة، وهذه النظرة كانت الأساس الذي بنى عليه "ديكارت" فكره وتصوره والذي أصبح بدوره أحد أهم مفردات الفكر والفلسفة الغربية، حيث يقول "آلغور" في كتابه "الأرض والميزان": "إن النهج الديكارتي إزاء قصة الإنسان يسمح لنا بالاعتقاد بأننا منفصلون عن كوكب الأرض مخولون بأن ننظر إليها على أنها مجرد تجمع من الموارد الطبيعية غير الحية التي يمكن استغلالها بالطريقة التي تروقنا، وقد أفضى بنا هذا المفهوم المغلوط الأساسي إلى أزمتنا الراهنة[35].

وهو ما أدى إلى أن يستقر في ذهن الإنسان وفكره أنه مركز الكون، ذلك لأنه تعلم من أفكار متوارثة أن وظيفة الكون الأولى هي تقديم الخيرات له وتوفير ما يرغبه من وسائل الرفاهية، وأن معيار الخير والصواب هو صالح الإنسان أي ما يضنه لصالحه، وقد تضخم هذا الشعور بدرجات متوالية في التاريخ بقدر ما

تضمنت قدرة الإنسان على الفعل وعلى التأثير بفضل ما طوع لنفسه من تطبيقات علمية وتكنولوجية[36].

فقد تميزت هذه النظرة الوضعية للبيئة بعنصرين رئيسيين: أولهما الخواء الروحي والافتقار إلى البعد القيمي والأخلاقي، وثانيهما اعتماد المادية والمصالح الذاتية أساسا في التعامل مع البيئة، فالفلسفة الغربية مثلا تعتبر الإنسان هو المقياس في الوجود وهو الحقيقة الوحيدة فيه، فكان النتاج الطبيعي لهذه النظرة الغربية الانفصال الروحي بل والعداء والاعتداء والظلم والاستئثار والفردية والأنانية، مما ولد ما نراه من أزمة البيئة الحالية، وهذه الأزمة هي التي أجبرت المجتمعات الغربية على الاهتمام بالبيئة والمحافظة عليها، فعندما برزت مشكلة التلوث واتسعت وانعكست بشكل سلبي على الإنسان والحيوان والنبات والمناخ وباتت تهدد حياة الإنسان الغربي ورفاهيته، تعالت الصيحات وتزايدت الصرخات لتدارك هذا الخطر الكبير الذي يزداد يوما بعد يوم، فعقدت المؤتمرات والندوات وسنت الأنظمة والقوانين وصيغت المعاهدات والاتفاقات، وغدت قضية البيئة من الأولويات العالمية، بل لا تكاد ترى أية اتفاقية دولية مهما كان موضوعها تخلو من ذكر البيئة، إلا أنه وبالرغم من ذلك فقد صيغت هذه الاتفاقيات بنفس التصور الغربي والوضعي مما أفقدها الكثير من فعاليتها ومصداقيتها.

بل إنك لتشعر بالانفصام العجيب في تعاملهم مع قضايا البيئة في حال تعارض المصالح مع المبادئ، فترى الانحياز الواضح للمصالح على حساب القيم والمبادئ[37].

ولكي تُشبع الثقافة الغربية الوضعية حاجاتها، أفرزت (التكنولوجية الحديثة والعلم الحديثة) الذين كرسا هذه الثقافة المعادية للطبيعة وزادا في تأزيم العلاقة بين الإنسان والبيئة، حيث نمت أزمة العلاقة هذه بين الإنسان والبيئة جنبا إلى جنب مع النمو الاجتماعي وتقدم المجتمع بصفة خاصة في ظل التصور الثقافي الغربي.

ذلك أن تاريخ الجنس البشري إذا ما أخذ برمته، يجعلنا نستطيع اقتفاء اثر نوعين من العلاقات التي تتضمن اجمالي النشاط البشري: النوع الأول علاقة الإنسان ببيئته الطبيعية " نظام الإنسان-الطبيعة "، والنوع الثاني: العلاقات بين الأفراد والمجتمع "العلاقات الاجتماعية"، ويتآلف هذان النوعان من العلاقات تآلفا وثيقا، ويتشابكان ، ولا يمكن الفصل بينهما إلا نظريا في سياق البحث العلمي، فالإنسان نفسه يعد جزءا من الطبيعة، نتاجها، وأعلى مرحلة في تطورها.

وكون حياة الإنسان مرتبطة بالطبيعة ماديا وروحيا بشكل لا فكاك منه، لا يعني في قليل أو كثير سوى أن الطبيعة متماسكة مع نفسها بشكل لا يقبل فكاكا، إذ الإنسان جزء من الطبيعة. كما أن للتقدم التكنولوجي انتكاسة وله جانب سلبي، فإذا ما أخضع الإنسان الطبيعة لنفسه، فانه يدخل في صراعات عديدة، صعبة للغاية مع الطبيعة، ويحدث تناقضات قد تفضي إلى مشكلات بيئية خطيرة، لذلك فإن مشكلة التكنولوجيا الحديثة هي في أصلها الثقافي، فهي في جوهرها تنطوي على سمة ثنائية، أي أنها طبيعية واجتماعية في آن واحد.

وقد لخص "هيوبرت" في محاضرة له عن الحضارة والعلم والتقنية انتقادات لتقنية اليوم، قائلا: "إن أسباب انتقاد التقنية واضحة تماما، فهذه الأسباب تكمن في أن العلم قد عمل على تدهور بيئتنا، أو إن شئت الدقة، عدم التطبيق الدقيق للتقنية العلمية التي أدت إلى المشكلات المعروفة الآن، ومن بينها تلوث البيئة، واستخدام العلم في أغراض الحرب والتدمير، والنتائج الفرعية والآثار الجانبية للتقدم الطبي، وفضلا عن ذلك هناك حقيقة، أن العلم والتقنية لم يمكنا الإنسان من جعل حياته أكثر سعادة وتوفيقا [38].

إذ نجد أحد أعلام ومؤسسي الفكر الغربي الحديث "فرانسيس بيكون" يقول في هذا الصدد: "يجب أن تحقق المعرفة العلمية سيادة الإنسان على مظاهر الطبيعة، وتهدف إلى تحقيق سيطرة الإنسان على عالمه عن طريق العلم[39].

بمعنى أن العلم هو أداتنا للسيطرة على الطبيعة ولاستغلالها لراحة الإنسان ورفاهيته، بل جعل "بيكون" هذا الهدف هو كل ما نريده من النظريات والاكتشافات العلمية، والقوانين العامة التي نستخرجها عن طريق الاستقراء للوصول إلى نتائج علمية.

لذا أشارت أصابع الاتهام إلى "بيكون" باعتباره مدافع عن التحكم في الطبيعة لأجل منفعة البشرية، فقد استطاع أن يصوغ أخلاقيات جديدة تُجيز استغلال الطبيعة من أجل الجنس البشري، ومن هنا كانت الهيمنة البشرية على الطبيعة كعنصر متكامل في برنامج فضح أسرار الطبيعة[40].

وبصدد ذلك أشار "جوزيف غلانفيل" الفيلسوف الإنجليزي الذي دافع عن برنامج "بيكون"، أن هدف الفلسفة الطبيعية يتمثل في توسيع المعرفة بواسطة الملاحظة والتجربة...وبذلك فإن بمعرفة الطبيعة يمكن السيادة عليها وقيادتها واستعماله في خدمة الحياة البشرية. وينبغي من أجل بلوغ هذا الهدف تطوير الفنون والأدوات من أجل استقصاء أصول وأعماق الأشياء وكشف مكائد الطبيعة المنعزلة[41].

ولقد ذهب ديكارت في مؤلفه "مقال في المنهج" إلى أنه من خلال معرفة براعات الحرفيين المهرة وقوى الأجسام نستطيع أن نجعل أنفسنا سادة الطبيعة وملاكها[42]. ويعتقد بعض الباحثين أن هذا التفكير كان بمثابة المنطلق الثقافي الذي نشأ عنه تصور "تقني، اقتصادي، نفعي" للعالم، يرى في النمو القيمة المطلقة، باعتباره السبيل الأوحد لتحقيق التقدم الاجتماعي، واعتُبرت الإنتاجية قيمة سامية من حيث أنها لا تتمثل فقط في زيادة السلع المادية، وإنما هي تعني كذلك تعميم سيطرة الإنسان على الطبيعة[43].

ويبدو أن الأزمة البيئية التي يعاني منها العالم اليوم، مرتبطة في حقيقتها في جانب كبير منها بأسطورة سيطرة الإنسان على الطبيعة، ذلك أن التركيز على

قدرة الإنسان في إخضاع البيئة وعلى حل جميع المشكلات قد أسهم في خلق الوضع الخطير الذي نجد أنفسنا فيه الآن[44].

الخاتمة:

يتضح من مجمل ما سبق أن مشكلة البيئة، قد أصبح لزاما علينا النظر إليها نظرة تكاملية، سلوكية، شاملة. وأن على الإنسان أن يدرك أن اعتقاده نتيجة ارتقاء مجتمعه، وتقدمه العلمي والتقني بأنه فوق الطبيعة أمر غير صحيح، بل عليه أن يسير مع الطبيعة على قدم المساواة، وأنه لن يستطيع حل مشكلاته مع بيئته إن هو لم ينظر إليها من أبعادها كافة: الطبيعية والاجتماعية والثقافية، بل والإنسانية، باعتباره أحد عناصر البيئة، أو أنه على الأقل عامل التغيير فيها، فلا بد في العصر الراهن، ونحن قد دخلنا الألفية الثالثة، من بلورة نظرة جديدة، أو اتجاه جديد، وموقف جديد، لعلاقة الإنسان بالبيئة وقد تكون فكرة "ليو بولد" أستاذ البيئة الشهير، نواة لها، حيث يقول: "إننا نحقق فكرة أخلاقية المحافظة على الأرض حين ننظر إليها على أنها مجتمع ننتمي إليه، وبذلك يمكننا أن نستخدم الأرض بطريقة تنم عن الحب والاحترام[45].

وعليه فإن قضية أزمة العلاقة بين الإنسان والبيئة يمكن النظر إليها، وفي جانب كبير منها على أنها قضية اتجاهات بيئية سلبية مكتسبة أو متعلمة، غذتها لدى الفرد روافد ثقافية تاريخية حطمت في داخله معنى العلاقة المعتدلة المتوازنة بينه وبين بيئته. والذي يمثل في الحقيقة سقوطا لثقة الإنسان في طبيعته الاجتماعية المتجاوزة، وتمركزا حول جسده وطموحه وأحلامه المادية، وهذا ما أشار إليه الفيلسوف الاجتماعي الأمريكي والمفكر البيئي "موراي بوكتشين" الذي يرى أن الأزمة البيئية تعود إلى انهيار النسيج العضوي للمجتمع والطبيعة.

❖ **هوامش البحث:**

(1) أحمد النكلاوي: **أساليب حماية البيئة العربية من التلوث_مدخل إنساني تكاملي**، مركز الدراسات والبحوث بأكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، 1999، ص21.

(2) سعد العبد الله الصويان: **الإنسان والبيئة من منظور أنثروبولوجي**، مجلة رسائل جغرافية، العدد:248، قسم الجغرافيا لجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، 2001، ص61.

(3) أحمد النكلاوي: **أساليب حماية البيئة العربية من التلوث_مدخل إنساني تكاملي**، مرجع سابق، ص23.

(4) المرجع نفسه، ص24.

(5) المرجع نفسه، ص45.

(6) المرجع نفسه، ص46.

(7) المرجع نفسه، ص47.

(8) المرجع نفسه، ص47.

(9) فرانسيس.ت وماك آندرو: **علم النفس البيئي**، ترجمة عبد اللطيف محمد خليفة وجمعة سيد يوسف، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت، 2002، ص385.

(10) حسين عبد الحميد أحمد رشوان: **البيئة والمجتمع، دراسة في علم اجتماع البيئة**، المكتب الجامعي، الإسكندرية، 2006، ص77.

(11) أحمد محمد موسى: **الخدمة الاجتماعية وحماية البيئة**، المكتبة العصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007، ص41.

(12) سوزان أحمد أبو رية: **الإنسان والبيئة والمجتمع**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2008، ص16.

(13) خالد شوكات: **الجريمة البيئية_دراسة حول المفهوم من منظور جنوبي**، منشورات جمعية آفاق للتربية والتعليم، روتردام،هولندا، 2001، ص16.

(14) المرجع نفسه، ص12.

(15) عبد الله المنزلاوي ياسين، **البيئة من منظور إسلامي**، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، 2008، ص22.

(16) المرجع نفسه، ص23.

(17) عبد المجيد عمر النجار: **قضايا البيئة من منظور إسلامي**، مركز البحوث والدراسات، الدوحة، (بدون تاريخ)، ص ص 78_79.

(18) رمضان محمد مقلد وآخرون: **اقتصاديات الموارد والبيئة**، جامعة الإسكندرية، الإسكندرية، 2000، ص11.

(19) حسين عبد الحميد أحمد رشوان: **البيئة والمجتمع، دراسة في علم اجتماعه البيئة**، مرجع سابق، ص75.

(20) كافين رايلي: **الغرب والعالم**، القسم الأول، ترجمة عبد الوهاب المسيري وهدى عبد السميع حجازي، مراجعة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، رقم90، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1985، ص250.

(21) خالد شوكات، الجريمة البيئية، مرجع سابق، ص ص13_14.

(22) المرجع نفسه، ص14.

(23) فرانسيس.ت وماك آندرو: **علم النفس البيئي**، مرجع سابق، ص385.

(24) كافين رايلي: **الغرب والعالم**، القسم الأول، مرجع سابق ، ص ص250_251.

(25) المرجع نفسه، ص266.

(26) المرجع نفسه، ص266.

(27) فرانسيس.ت وماك آندرو: **علم النفس البيئي**، مرجع سابق، ص 386.

(28) المرجع نفسه، ص 386.

(29) يتعلق بالهجرة أو الترحال.

(30) فرانسيس.ت وماك آندرو: **علم النفس البيئي**، مرجع سابق، ص 387.

(31) المرجع نفسه، ص387.

(32) المرجع نفسه، ص387.

(33) المرجع نفسه، ص389.

(34) المرجع نفسه، ص392.

(35) عبد الله المنزلاوي ياسين: **البيئة من منظور إسلامي**، مرجع سابق، ص26.

(36) سوزان أحمد أبورية: **الإنسان والبيئة والمجتمع**، مرجع سابق، ص150.

(37) عبد الله المنزلاوي ياسين: **البيئة من منظور إسلامي**، مرجع سابق، ص 27.

(38) عبد الجبار عباس: **الآثار السلبية للتقنية على البيئة**، جريدة الصباح، الاثنين 12 ديسمبر 2007، صفحة العلوم.

(39) فؤاد زكريا: **الأورجانون الجديد لفرنسيس بيكون**، مجلة تراث الإنسانية، المجلد الثالث، 1964، ص893.

(40) كارولين ميرشانت: **موت الطبيعة، الفلسفة البيئية**، الجزء2، ترجمة: معين شفيق رومية، عالم المعرفة، (بدون تاريخ)، ص ص42-43.

(41) حسن محمد محي الدين السعدي: **دراسات في العلوم الإنسانية وقضايا البيئة**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2008، ص95.

(42) رينيه ديكارت: **مقال عن المنهج**، ترجمة: محمود محمد الخضيري، مراجعة وتقديم: محمد مصطفى حلمي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1985، ص268.

(43) حسن محمد محي الدين السعدي: **دراسات في العلوم الإنسانية وقضايا البيئة**، مرجع سابق، ص105.

(44) محمد الجوهري: **دراسات أنثروبولوجية معاصرة**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993، ص269.

(45) عبد الجبار عباس: **الآثار السلبية للتقنية على البيئة**، مرجع سابق، صفحة العلوم.